

الفصل الرابع

الجمال الفنى

أ - التناسب بين المقسم به والمقسم عليه

يبدو أن الطبرى وصل ذات مرة — إلى إحساس مبهم وقاصر بوجود صلة بين المقسم به والمقسم عليه . استدل على ذلك بما قاله فى تفسير سورة ص ، عندما وجد المفسرين اختلفوا فى تفسير تسمية القرآن بالذكر، بين الشرف والتذكير، قال: وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال : معناه ذى التذكير ، لأن الله أتبع ذلك قوله : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾^(١) فكان معلوماً بذلك أنه إنما أخبر عن القرآن أنه أنزله ذكراً لعباده ذكراً بهم ، وأن الكفار من الإيمان به فى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ^(٢).

ولكن الرازى كان أول من أشار صراحة — من مصادرى — إلى هذا التناسب. قال مثلاً : فى السورة التى أقسم الله فيها لإثبات الوحدانية، أقسم فى أول الأمر بالساكنات حيث قال: والصفات . وفى السور الأربع الباقية أقسم بالمتحركات، فقال : والذاريات، والمرسلات، والنازعات. ويؤيده قوله :

(١) سورة ص ٢ .

(٢) جامع ٢٣ / ٧٥ .

والساجحات ، فالسابقات ، والعاديات . وذلك لأن الخسر فيه جمع وتفريق، وذلك بالحركة اليق. أو أن نقول في جميع السور الأربع أقسم بالرياح. وهى التى تجمع وتفريق. فالقادر على تأليف السحاب المتفرق بالرياح الدارية والمرسلة ، قادر على تأليف الأجزاء المتفرقة ، بطريق من الطرق التى يختارها بمشيئته (١).

وشرح الفراهى — عن حق — بأن ابن القيم فسر أكثر آيات القسم عن طريق يُظهر دلالة المقسم به على المقسم عليه . فإذا أشكل عليه ذلك ، جعل المقسم عليه محذوفاً، وجعل القسم دالاً على صفات الله وما ماثلها (٢).

وأمثل لذلك بقوله عن الأقسام فى صورة الشمس: قد أقسم الله بهذه الأشياء التى ذكرها ، لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره، وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذى يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية، من غير قدر سابق وقضاء متقدم. وهذا أبلغ فى التوحيد الذى سقت له هذه السورة (٣). وقال عن القسم فى سورة المرسلات: فيه أبين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة (٤).

ولم يكتف ابن القيم بذلك ، بل حاول أن يربط بين الأقسام عند تعددها. قال عن القسم فى سورة القيامة : جمع — سبحانه — فى القسم بين محل الجزاء — وهو يوم القيامة — ومحل الكسب — وهو النفس اللوامة (٥). وقال فى سورة الفجر:

(١) مفاتيح ٢٨ / ١٦٧ — ٨ . عبد الحميد ٢٥٣ .

(٢) إمعان ١٢ .

(٣) التبيان ٧٧ / ١ .

(٤) التبيان ٢٧٤ / ١ — ٥ .

(٥) التبيان ٦٩ / ١ .

افتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات { الفجر } ، وختمه بقوله «وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ» المتضمن لآخر الصلوات ^(١).

وعقب النيسابورى على القسم فى سورة الضحى قائلا : تأمل مطابقة هذا القسم — وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل — للمقسم عليه ، وهو نور الوحى الذى وافى محمدا بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه : ودع محمدا ربه . فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل ، على ضوء الوحى ونوره ، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه ^(٢) . ولذلك جعله السيوطى من لطائف القسم ^(٣).

وعنى الآلوسى أيضا بتبع هذه العلاقات . فقال عن القسم بالسماء ذات الحبك : لعل النكتة فى ذلك القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها وتنافى أغراضها بطرائق السماوات فى تباعدها واختلاف هياتها ، أو الإشارة إلى أنها ليست مستوية جيدة ، أو ليست قوية محكمة ، أو ليس فيها مايزينها بل فيها ما يشينها من التناقض ^(٤) .

ومن أجل ذلك رأينا الفراهى يجعل من أهداف كتابه إبانة أن الإقسام بالمخلوقات وقع من أجل دلالتها لا تعظيمها .

(١) البيان ٨٧ / ١ .

(٢) غرائب ٣٠ / ١٢٠ — ١ . وانظر معترك ٤٥٥ / ١ . الإتيان ١٧١ / ٢ . الآلوسى ١٩٥ / ٣٠ — ٧ . بدوى ١٧٢ — ٣ . قمحاوى ٢٨ / ٣ .

(٣) معترك ٤٥٥ / ١ . الإتيان ١٧١ / ٢ . قمحاوى ٢٨ / ٣ . وأتى به دون نسبة : العمري ٢٥١ .

(٤) روح ٥ / ٢٧ .

ووصف د. محمد محمد أبو شهبة^(١) المتقسم به والمقسم عليه في القرآن بالتوافق العجيب غير أنه قد يخفى على غير ذى العقل الذكى، والنظر الشفاف، والحس الدقيق، الذى يحكم على الأشياء بادئ الرأى من غير روية وتفكير^(٢).

وقال د. محمد بكر إسماعيل : إذا تأملنا فى آيات القسم ، وجدنا الصلة جد قوية بين المقسم به والمقسم عليه، وأدركنا أن بينهما تناسبا وثيقا، بحيث لو جىء مكان أحدهما بشيء آخر لاختل النظام ، وذهبت مواطن الجمال والجلال .

فقد أقسم الله — مثلا — بطوائف من الملائكة على وحدانيته وربوبيته ، لنفى ما زعمه المشركون من وجود صلة نسبية بينه وبينهم فقال : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾^(٣).

فقد زعموا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا. فأقسم بهم لبيان وظائفهم ، وتحديد مكانهم، وإثبات كماله فى ذاته ، وبيان أنه الواحد الأحد رب السماوات والأرض وما بينهما .

فلو جىء بمقسم به آخر غير الملائكة ، فقليل مثلا : والذاريات ذروا، أو قيل: والنجم إذا هوى ، لا اختل نظم الكلام، ونسق المعانى، ولذهب وجه فريد من وجوه الإعجاز البياني^(٣).

(١) المدخل ٢٤٨ .

(٢) سورة الصافات ١ — ٣ .

(٣) دراسات ٣٧٢ — ٣ .

ب - البلاغة والإعجاز

كان محمد بن الطيب الباقلاني أول من تعرض للإعجاز في أقسام القرآن. ولكنه — لما كان يرفض أن يكون الإعجاز قد حصل في بعض الوجوه بمفردها، من غير أن يقارن ما يصل به الكلام ويفضى عليه — فقد أنكر أن يقول قائل : إن ما أقسم به القرآن وحده بنفسه معجز^(١). يريد بذلك أن الإعجاز في النظم العام للقرآن .

وجعل السيوطي إقسامه في مواضع لإقامة الحجة وتأكيدا الوجه التاسع والعشرين من وجوه إعجازه^(٢).

ورأى الألوسي في القسم، في صدر سورة النجم ، على نزاهته ﷺ عن شائبة الضلال والغواية ، من البراعة البديعة ، وحسن الموقع ، مالا غاية وراءه^(٣). وعقد عبد الحميد الفراهي فصلا لبعض ما في القسم من أبواب البلاغة ولطائفها، ذكر فيه أن أسلوب القسم معاني مفيدة للاستدلال ، مما يفتح عليه من البلاغة أبوابا، ويلقى عليه من المحاسن جلبابا. وذكر منها :

الأول : إظهار التأكيد والجد في القول، كما ترى في قول المرسلين من النصارى، حيث جاء في القرآن : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾^(٤).

(١) إعجاز ٢٧٦ . سلطان ١٠٧ .

(٢) معترك ١ / ٤٤٩ . شرف الدين ٩٠ .

(٣) روح ٢٧ / ٤٥ .

(٤) سورة يس ١٦ — ٧ .

ولذلك كثر القسم في أوائل النبوة حتى تبين لهم جده .

الثاني : كون القسم إنشاء . وذلك يُبهم طريق الإنكار على الخصم . فإنه — إن شاء — أنكر جواب القسم لكونه خيرا . ولكنه لا يسنح له أن ينكر القسم نفسه لكونه إنشاء . كما إنه لا يتوجه إلى إنكار الصفة، مع أنهما — في الحقيقة — من الأخبار .

الثالث : إيجاز هذا اللفظ للاستدلال . فإن اللفظ إذا قلّ ، يترأى المعنى متجردا عن حُجبه ، فيزيده تنويرا وتأثيرا ، كأنه أرهف حده، وقُرّب بعده .
الرابع : إشراك السامع في استنباط الدليل ، وذلك مما يكسر سَوْرَةَ {حِدَّة} خصامه . فإنه إذا علم شيئا بعد التأمل ، فرح به، واهتزّ له . وترى ذلك بينا في أقسام القرآن . فإنها تعرض على السامع أمرا يدعوه إلى استعمال عقله . وربما تسوقه إلى سَمَتِ الدعوى بلطافة وتدرّيج .

الخامس : وضع الدليل في غير صورته كيلا يبادر المنكر إلى المخاصمة، لأن ذلك يذهله عن الخصام .

السادس : ما أعطت أوائل السور من نضرة بمجتها، ورونق دياجتها، إذ تلمع الأقسام في قسّمات السور — على الأكثر — كالغرة البيضاء . وأما الذى جاء في أثناء السور من الأقسام فقليل، ومثاله كالتصرّيع في أثناء القصيدة . وقد اصطفى القرآن له كل ما إنْ صُوِّرَ على عنوان الكتاب، أو تمثّل للفعل في مطلع الخطاب، ملأ العين والفؤاد بحسنه وجلالته، بل يجل أكثرها عن التصوير لكمال عظمتها، وضيق نطاق الخيال عن سعتها .

السابع : تقديم ذكر الدليل على ذكر الدعوى . فيلقى أولا على الخصم أمرا يوجهه إلى سمت لا بد أن يجلبه إلى الدعوى . فإن المنكر — إذا علم من قبل ما تريد الاستدلال عليه — أخذ سمتا {جهة} آخر، وتنكب عن الوجه الصحيح . فإذا لم

تذكر الدعوى أولا ، يوشك أن يتوجه إلى صراط مستقيم . فإذا سار على قصد السبيل، قُدّته إلى آخر النتيجة .

الثامن : كون القسم من جوامع الكلم^(١).

وواضح أن هذا الأمر الثامن لا يبعد كثيرا عن الثالث، ويحسن دمجهما معا .
وذهب محمد الخضر حسين — في أسلوب نفى القسم بخاصة — إلى أنه من الأساليب البليغة في التوكيد والتحقيق، للدلالة على أن المخبر عنه واضح يبين لا يحتاج إلى قسم^(٢).

وعلق محسن عبد الحميد على تناول الرازي للأقسام قائلا :

إن الرازي — بمعالجته موضوع القسم بهذا الشكل — أراد أن يثبت جانبا آخر من جوانب بلاغة القصد القرآني، وإعجازه في استعمال الأساليب على الوجه الأمثل، حيث نرى أن الوجود كله يمشى على نسق معين : فكل استعمال من استعمالات القرآن إنما يتناسق مع ما في الوجود من مظاهر متنوعة ، دون أن يكون هنالك ارتباط واضطراب وتناقض . وهذه ناحية مهمة من نواحي إعجاز القرآن^(٣).

ووصفت د . عائشة عبد الرحمن القسم القرآني في أوائل السور بأنه ظاهرة أسلوبية أخرى من البيان المعجز^(٤).

(١) إمعان ٤٨ — ٥٥ . وانظر إسماعيل ٣٧٠ — ١ .

(٢) بلاغة ٤٥ .

(٣) الرازي ٢٥٤ .

(٤) الإعجاز ٢٢٦ .

ووصف د . محمد أحمد الغمراوى آية ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ ^(١) بأنها مثال من الإعجاز العلمى للقرآن . فقسمه — سبحانه — فى هذه الآية له حكمته، لأنها تشمل كل محسوب معدود ، إذ لا يمكن لما له عدد أن يخرج عن أن يكون شفعيا أو وتريا (زوجيا أو فرديا) . ولكن القسم يشير إلى سر فى المقسم به . فهو لا يدل على مجرد المعدود، ولكن على أهمية كونه شفعيا أو وتريا . فمثلا عناصر المادة، التى لا بد من بعضها أو من مركباتها، فى الاختراعات وغيرها، كل عنصر منها تتوقف ذاته وخواصه على عدد الشحنات الكهربائية الموجبة فى نواة ذرته أو عدد الكهيريّات السالبة الدائرة فى أفلاكها حول النواة ^(٢) .

وقد عقب د . أحمد عبد السلام الكردانى على هذه الأقوال قائلا :
ما أروع هذا القسم ودلالته العلمية العميقة ^(٢) .

وتؤدى بنا هذه الجولة إلى أن نختلف اختلافا كبيرا مع الغمراوى والكردانى ومن لف لفهما من أصحاب الإعجاز العلمى، وبعض الاختلاف مع السيوطى وصاحبة شرف الدين ومن اتفق معهما فى جعل الأقسام وجها مستقلا من وجوه الإعجاز. ونقترب كثيرا من الباقلانى ، فنرى أن كل الآراء التى تحدثت عن بلاغة الأقسام وإعجازها تدفعنا إلى أن نؤمن أن الأقسام القرآنية أحد عناصر الإعجاز البيانى .

(١) الإسلام ٣٧٠ . الكردانى ٥٢ .

(٢) نماذج ٥٧ .